سعيد أبو الريش

جمال عبد الناصر: آخر العرب

راجع الترجمة عن الإنكليزية سمير كرم

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥). ٤٣٥ ص.

وليد خالد أحمد حسن

كاتب وباحث عراقي.

ـ ١ ـ

لا نتجاوز الحقيقة إذا اعتبرنا أنّه بعد انقضاء نحوٍ من أربعة عقود على رحيل الزعيم العربي جمال عبد الناصر، فإن كلّ ما يتعلق به: سياساته، علاقاته المصرية والعربية والعالمية، مواقفه وقراراته، حتّى شخصيته، لا يزال يثير الجدال، وفي كثير من الأحيان ما يكون جدالاً حاداً، ذلك أن أنصار عبد الناصر يؤيدونه بِكُلّ قواهم ومشاعرهم، وخصومه ينتقدونه بالدرجة نفسها من الحدة، ومن هم وسط بين هذا وذاك حالات قليلة، إن لم نقل نادرة.

والكتاب الذي نحن بصدد مراجعته لمؤلّف عربي يكتب باللغة الإنكليزية من شأنه أن يثير جدالاً من هذا القبيل، على الرغم من أنّه يحتوي على هذين العنصرين في آن معاً أو ربما لأنه بسبب ذلك. فالمؤلّف لا يخفي حبه العميق لعبد الناصر، وهو مع ذلك يذهب في نقده له ولسياساته وقراراته والتطورات التي طرأت على شخصيته بفعل الأحداث والمعارك إلى آماد بعيدة. لهذا، فإن الكتاب يقدم ربما للمرة الأولى بالنسبة إلى سير الحياة الكثيرة التي كتبت عن عبد الناصر مزيجاً فريداً، لكنه إنساني في عمقه، مخلص في محاولته تقديم تحليل وتقييم لهذا الزعيم داخل إطار مجتمعه وأمته والعالم الذي عاش فيه وصارعه.

يعتبر عبد الناصر القائد العربي الأبرز في القرن العشرين حين تسنّم سدة السلطة عام ١٩٥٢، وقد كان هذا الضابط في الجيش المصري مؤيداً للغرب، وكانت وكالة الاستخبارات الأمريكية على علم بتحرّكه، إلا أن عبد الناصر صار في ما بعد تجسيداً للمواجهة التاريخية بين العرب والغرب.

إن إعادة النظر في عبد الناصر مع أخذ ما جرى في الماضي في الاعتبار، تحدد لماذا لم تسفر جهود هذا الزعيم الملهم عن تحرير الجماهير العربية عندما كان على قيد

الحياة، وكيف تحول أعداؤه الإسلاميون إلى ورثته عند هذه الجماهير. لم يترك عبد الناصر إرثاً سياسياً خلفه، على الرغم من أنه كان يتمتع بدعم جماهيري واسع لم يشاركه فيه أحد من قادة العرب في الأزمنة الحديثة، وكان هذا الدعم الجماهيري موصولاً حتّى في الساعات الحالكة. ومع أن الجماهير أبدت أحياناً ضغوطاً على حكامها لإجبارهم على السير مع عبد الناصر، إلا أن هذا القائد لم يقولب هذه الجماهير للعمل ضمن أُطر حزبية أو حركية فاعلة، ولهذا السبب تبخر حلمه بعد غيابه. ربما يكون ما حدث على هذا النحو هو الذي حمل الشعوب العربية على وقف محاولاتها، أو لعل هذا القائد الشعبي المفصح عن تمنيات ورغبات الشعوب العربية، والمالك لِكُلّ المقومات لجعلهم مستقلين فعلاً، واجه توليفة يستحيل بلوغها.

إن الفجوة التي كانت قائمة بين عبد الناصر وسائر القادة العرب ما زالت قائمة حتّى يومنا هذا، فعلى الرغم من أن القادة الآخرين كانوا يعتمدون على الدعم الغربي ويتجاهلون شعوبهم، إلا أن أصوات الشعب سكنت في شخص عبد الناصر، وقد تكشفت عن عدم قدرة عبد الناصر على مصالحة مسؤوليته نحو شعبه مع ميوله الطبيعية المؤيدة للغرب، ما أدى إلى انهياره.

كان عبد الناصر مؤيداً للأمريكيين ومعادياً للشيوعية ضدّ الملكية والباشوية الفاسدة، ومعارضاً لحركات الإسلام السياسي. لكن إعجابه بأمريكا لم يحدّ من سلطته ولم يضعفها. وخلافاً لبقية الزعماء العرب الذين عاصروه لم يعتمد في بقاء سلطته على الأمريكيين، فقد كانت الغريزة الطبيعية التي تسيطر عليه بالاستجابة لطموحات شعبه تتجاوز كلّ ما سواها، وذلك ما جعل منه رمزاً شعبياً. وحتّى نهاية عام ١٩٥٥، كان رفضه الدعوة الأمريكية إلى الانضمام إلى تحالف إقليمي مضاد للشيوعية لا يعود بأي شكل من الأشكال بالمصلحة على المصريين، بل على بقية العرب أيضاً. وقد جعل ذلك عملية المصالحة بين ميوله الأمريكية وسلوكه الأممي أمراً سهلاً نسبياً، وغدت لاحقاً مسألة حسم ما إذا كانت مسألة الانقياد إلى ما يريده شعبه أو إلى أمريكا إحدى معضلات سياسته الخارجية، وقد اكتسبت هذه المشكلة مزيداً من الأهمية عندما تغير مضمون مصطلح «شعبي» أو «شعوبنا» من أن يكون المقصود به المصريون فقط إلى شموله الأمة العربية بكاملها. وعندما تعرض للضغط لاختيار أحد الخيارين، استمر عبد الناصر في الانحياز إلى جانب إرادة شعبه حتّى عندما كانت تلك الإرادة سطحية وتفتقر إلى المبررات، الأمر الذي جعله يبدو وكأنه لغز.

ومن اللافت للانتباه أن الموضوع الرئيسي الوحيد والمهم الذي لم يتبنّ تجاهه عبد الناصر سياسة شعبية كان هو العلاقة مع إسرائيل. فقد اعتقد أن السلام وشيك في الوقت الذي كانت فيه موجة الرفض العاطفية ضدّ إسرائيل تتصاعد لدى الشارع المصري. ولكن كان من الواضح في حقيقة الأمر أن عبد الناصر كان متناقضاً في تظاهره بالاعتدال تجاه إسرائيل عند إصداره كتاب **فلسفة الثورة** في عام ١٩٥٤. لقد وضع ذلك الكتاب الذي

كانت فحواه تهدف إلى إعطاء قائد حركة الضباط الأحرار أيديولوجيا، وهو الذي تبنى فكرة القومية العربية، بل قدمها أيضاً حتّى على الوطنية المصرية من أجل تصعيد سلوكيات المجابهة تجاه الكيان الصهيوني. وقد تكشف مؤخراً أن ذلك الكتاب كان من تأليف الصحافي المصري محمّد حسنين هيكل، وهو قومي عربي متحمس، وقد أرسى فيه عبد الناصر مفهوم الهوية المصرية العربية بحسب اعتقاده الشخصي والالتزامات التي تترتب على ذلك.

وفي ما يتعلق بقضية فلسطين، فإن عبد الناصر لم ينجح قط بإبعاد نفسه عنها والتركيز على المشاكل الداخلية في مصر المتعلّقة بالإصلاح الذي أراد تنفيذه. وبإمكان المرء القول إن المشكلة الفلسطينية فرضت نفسها عليه. وكان التعامل مع هذه القضية جزءاً من مهامه بحكم موقعه كقائد للعرب. وبدءاً من صفقة الأسلحة التشيكية وتأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وعواقبه، فقد أصبح جمال عبد الناصر الزعيم بلا منازع للعرب. لكن قبل ظهوره على الساحة العربية ظلّ القادة العرب منذ العشرينيّات يركزون على القضية الفلسطينية. وفي أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات قبل حتّى أعداء عبد الناصر زعامته واعتبروه مسؤولاً عن المواجهة مع إسرائيل. وعلى الرغم من أن كلّ الحكومات العربية قد تنافست على روح القضية الفلسطينية، فإن القبول به قائداً للجميع كان اعترافاً غير مباشر بموقفه مع الشعب العربي وبقيادة مصر للعالم العربي.

ـ ٢ ـ

يبقى أن أخطر ما تناوله الكتاب وما أورده من خفايا تكشف لأول مرة مسألة مواقف عبد الناصر من أحداث العراق، ولا سيّما بعد ثورة ١٤ تموز/يوليو ١٩٥٨. فقد أصبح العراق عند عبد الناصر البلد الأكثر إلحاحاً في عقله. وكان يوجد فيه مجموعة من الأحزاب السياسية، من ضمنها حزب البعث والحزب الوطني الديمقراطي، وكلاهما ملتزم بالقومية العربية ويتبنى وحدة العرب جميعاً في بلد كبير. وكان في العراق أيضاً حزب شيوعي بحجم معقول ويعمل تحت الأرض، وطبقة من الضباط لها تاريخ في التدخل بالأمور السياسية. وكانت العائلة المالكة غير شعبية، ولم يكن الشعب العراقي في الحقيقة مؤيداً لنوري السعيد في كلّ سياساته... لقد كانت هناك اتصالات بعبد الناصر من قبل عراقيين طالبوا بالدعم في محاولاتهم تغيير حكومة بلادهم، وقد جاء هذا الطلب من ضباط الجيش، إذ أرادت مجموعة من ضباط الجيش العراقي، تدعى الضباط الأحرار، وانتهجت طريقة حركة عبد الناصر في الانقلاب، أن يدعمها في اللحظة التي تعلن تمردها ـ التسمية للمؤلّف ـ المعادي للملكية والمعادي للغرب. وكان الضباط الأحرار تحت قيادة الزعيم عبد الكريم قاسم، وهو ضابط عراقي ذو سجل نظيف، قد ذهبوا إلى حدّ طلب تغطية حيوية عند حدوث الانقلاب. وأُعيد عرض الطلب على عبد الناصر، إلا أنّه خيب أمل الضباط ولم يستجب لهم.

وربما كان قراره ضدّ مساعدتهم، لأن

ذلك لو تمّ سيكون تحدياً لمبدأ أيزنهاور وسيؤدي إلى مواجهة أراد هو أن يتجنبها، وربما لأنّه لم يكن يعرف بما فيه الكفاية عن الضباط، ولم يكن يريد أن يزجّ بنفسه في فشل. وهناك أيضاً ما يمكن اعتباره أكثر احتمالاً، وهو أنه لم يكن حقاً موافقاً على تدخل الجيش في السياسة على الرغم من خلفيته الشخصية. ومهما يكن السبب، فمن الجلي أن عبد الناصر لم يكن ثورياً عربياً يناضل من أجل الوحدة العربية بصرف النظر عن النتائج، ومهما كان هدفه فإنه ألزم نفسه بمبادئ محددة من ضمنها التردد في تأييد الانقلابات.

لقد كانت للانقلاب ـ التسمية للمؤلّف ـ ضدّ الملكية العراقية دلالات عديدة. لقد كان الانقلاب الوحيد في الشرق الأوسط الذي كان مفاجأة كاملة لِكُلّ فرد، إذ لم يكن هناك أي ارتباط بين قادة الانقلاب والقوى الخارجية. ولم يكن قائد الانقلاب غير الزعيم عبد الكريم قاسم، وهو الضابط نفسه الذي اتصل بالحكومة المصرية طالباً المساعدة قبل عامين من الانقلاب.

كان أول عمل قام به عبد الناصر إثر سماعه بأخبار الانقلاب، إصدار أوامره بوضع قوات الجمهورية العربية المتحدة في حالة تأهب قصوى، وأمر أيضاً بتوجيه وحدات عسكرية خاصة وقوة جوية إلى الحدود السورية ـ العراقية. وأتبع ذلك بتقديم الاعتراف بالحكومة الجديدة في بغداد والتصريح بـ «إن أي هجوم على العراق هو هجوم على الجمهورية العربية المتحدة وفقاً لميثاق الدفاع العربي المشترك الصادر عن جامعة الدول العربية». وفي أثناء ذلك قام عبد الناصر بزيارة إلى موسكو لعقد اجتماعات طارئة مع خروتشوف. وقد طلب عبد الناصر بوصفه رئيس الجمهورية العربية المتحدة نصاً صريحاً من الاتحاد السوفياتي يحدد الموقف حول العراق، فأبلغ بأن الاتحاد السوفياتي لن يقحم نفسه في أي مواجهة مع الغرب حول العراق. وقد عبّر عبد الناصر عن عدم سعادته بذلك. وفي ١٨ تموز/يوليو فاجأ عبد الناصر العالم وطار إلى دمشق من موسكو في طريقه إلى القاهرة. وقد توقع كلّ فرد أن يهبط عبد الناصر في بغداد عند ذهابه إلى الاتحاد السوفياتي. ولكن في واحد من أكثر التطورات المهمة في نهاية الخمسينيات، والتي ساعدت في تشكيل الشرق الأوسط، واستمرت في تشكيل مستقبله، رفض قاسم أن يمنح عبد الناصر موافقة للهبوط في بغداد. ووصف طلب عبد الناصر لزيارة العاصمة العراقية بأنه جاء في وقت غير مناسب لها. وقد تمّ التحقق من هذه المعلومة من قبل المؤلّف من وصفي التل الذي كان ملحقاً أردنياً في إيران، وكان قد حصل على هذه المعلومة السرية من ضابط مخابرات إيراني في بيروت عام ١٩٥٩.

كان سلوك قاسم خلال الأيام الأولى من حكومته محيراً، وبقي قدر كبير منه غير معروف وخارج عن المألوف... إن نجاحه في الإطاحة بالملكية قد تبعه تأييد ضخم له في أرجاء العراق، ولكن ذلك وطموحه الواضح لأن يصبح القائد الأعلى للعراق لم يكونا ليشرحا الضغينة التي يحملها لعبد الناصر، ربما لأنه لم يغفر لعبد الناصر رفضه مقابلته أو حتّى

تشجيعه وتشجيع رفاقه قبل عامين من الانقلاب. وإن ما يدهش ـ الكلام للمؤلّف ـ أن مصادر مخابراتية غربية أبلغت قاسم بمعلومات عن علاقة عبد الناصر بوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

ويتناول المؤلّف انقلاب ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣ بشيء من التركيز واصفاً إياه بالانقلاب الدموي الناجح، ولأن هوية الناس الذين قاموا به هي موضوع سؤال ـ يقول المؤلّف ـ فقد بدا كما لو أن وحدات من الجيش العراقي ثارت ضدّ الرجل القوي في العراق باسم القومية العربية. وقد أخذ ذلك أكثر من أربع وعشرين ساعة من معارك شوارع دموية لإنجاز التفوق عليه وعلى مؤيدي قاسم.

إن الاتهام ضدّ قاسم كان التآمر على القومية العربية والوحدة وإعدام كثير من ضباط الجيش الذين دعموه واعتبروا عبد الناصر قائداً لهم. وبدا كما لو أن عبد الناصر حقق انتقامه للموصل، وفوق ذلك كلّه كأنّ لديه سبباً لمعاقبة الناس الذين دعموا قاسم ضدّ الوحدة العربية، ومنهم الشيوعيون ورفاق دربهم، وكان الشيوعيون هم الذين جعلوا قاسم يربح الموصل بإعطائه دعماً شعبياً كافياً لوقف زحف القومية العربية التي مثلها عبد الناصر.

ثمّ يكشف المؤلّف أمراً لا ندري مدى صحته، لأنه يعتمد على «أقاويل» أكثر من اعتماده على مصادر وثائقية رصينة، ربما دفعتها ـ أي الأقاويل ـ عقدها النفسية وانتماءاتها المذهبية إلى إطلاقها ... وللأسف نقلها المؤلّف هنا من دون تمحيص حيث يقول: إن حقائق انقلاب ٨ شباط/فبراير ١٩٦٣ تختلف في مظهرها، فلم يكن انقلاباً ناصرياً ولا انقلاباً قومياً عربياً، بل كان واحدة من أكثر عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إحكاماً في تاريخ الشرق الأوسط. وكانت عملية أدت إلى أوضاع سيئة، حتّى إنَّ نتائجها استمرت في التأثير في العراق حتّى يومنا هذا.

لقد جرى تنظيم وتنفيذ العملية بواسطة أحد المرتبطين بويليام ليكلاند في السفارة الأمريكية في بغداد. وهو عميل سابق في القاهرة ومتخصص في العمليات السرية. وقد أحكم الجمع ما بين مجموعة من الضباط العسكريين المعادين لقاسم وعناصر من حزب البعث في العراق، ورفاق بعثيين في سوريا، وخليط من الناس الذين كان خوفهم حقيقياً من استيلاء الشيوعيين على العراق. إن اختلافهم لم يحدّ من تصميمهم على التخلص من التهديد الشيوعي للعراق.

لقد جهزت سلفاً قائمة بأسماء المؤيّدين لقاسم لإعدامهم، وحتّى بعض الذين استقالوا من الحزب الشيوعي قد جرى إدراجهم. وأعطيت القوائم إلى بعثيين من الحرس القومي مع أمر بسيط بالقضاء عليهم. وقد تسلم القادة الذين نفذوا حملة المذابح القوائم من ويليام ليكلاند ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، ونفذت الأوامر بقتل المؤيّدين لقاسم. وكانت القائمة التي وضعت جميعها من قبل عميل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ويليام ماكهيل قد طبقت بصورة منظمة. ولم يقم عبد الناصر بأي حركة لإيقاف المجزرة

مدّعياً أنه ليست له سيطرة على ما كان يحدث.

في الحقيقة ـ يقول المؤلّف ـ إن عبد الناصر قد قام بمقايضة مكشوفة تماماً، فلأنه كان قد تآمر لسنوات من دون نجاح ضدّ قاسم توصل إلى اتفاقية مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية تعهدت الوكالة بموجبها بتخليص العراق من قاسم، وفي المقابل وعد عبد الناصر بأن يتنازل عن التحكم بالعراق لصالح وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

❋ ❋ ❋

إن هذا الكتاب حافل بمعلومات كثيرة واستنتاجات أكثر، بعضها جديد لم يسبق أن عالجته السير السابقة العربية أو الأجنبية عن حياة عبد الناصر، وهذه المعلومات قد لا تتفق مع ما يراه أنصاره ومريدوه، أو قد تتصادم مع قناعات خصومه وناقديه، وتبقى مسؤوليتها على عاتق المؤلّف. مع ذلك، فالأمر المؤكّد الذي تدعمه قراءة موضوعية متأنية للكتاب هي أن المؤلّف بذل جهداً كبيراً في المجالين اللذين صنعا مادة الكتاب من بدايته إلى خاتمته: جمع المعلومات من مصادرها وتحليلها، وتقديم ما تنطق به من استنتاجات.

إن هذا الكتاب عن عبد الناصر هو في الوقت نفسه كتاب عن الحقبة منذ ظهوره على مسرح الحياة القومية، عن الوطن العربي من سنوات ما قبل عبد الناصر وحتّى الآن.

لقد وضع الكتاب عبد الناصر في السياق الوطني والقومي والإقليمي والدولي ربما كما لم يفعل أي كتاب آخر عنه، ليس لأنه يمتلئ بتفصيلات كثيرة ومعلومات غزيرة فقط، إنما لأنه كتب بعواطف حارة قوية وتدفق يمتزج فيه العقل والوجدان ويؤثر في كلا الاتجاهين.

إنه يتحيز لعبد الناصر، وبصدق أيضاً، وهو يلقي عليه اللوم غير مكتف كغيره بتوجيه الاتهام. وربما ـ لهذا ـ كان تفوقه على سير عبد الناصر الأخرى العديدة. وربما كان استيعاب المؤلّف ما جرى طوال سنوات غياب عبد الناصر وتأثيرات هذا الغياب نتيجة انتظاره نحو ٣٢ عاماً ليكتب هذه السيرة، كما استوعب ما كتب عنه وما لا يزال يرويه بعض صحبه الذين بقوا على قيد الحياة، وما يشهد به أولئك الذين صادقوه فعرفوه عن قرب، وهو ـ المؤلّف ـ مع ذلك لم يأخذ أي قول أو شهادة أو سيرة مأخذ التسليم بالأمر، أو معارضته □